مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
العدد التاسع – جوان 2018

.OEB Univ. Publish. Co

الفكر الاستشرافي لمالك بن نبي اتجاه أزمات المجتمعات العربية المعاصرة.

The visionary thinking of Malik bin Nabi is the direction of the crises of modern Arab societies

أ . وفاء لعريظ، جامعة سكيكدة، الجزائر.
wafaalarit@gmail.com
أ. زينب قريوة، جامعة جيجل، الجزائر.
guerioua zeyneb
أ. لمين هماش، جامعة ورقلة، الجزائر.
sabriamine61@yahoo.com

تاريخ التسليم:(2017/06/19)، تاريخ التقييم:(2017/12/13)، تاريخ القبول:(2018/02/14)

ملخص :

كان لمالك بن نبي فضل كبير في تقديم رؤية حضارية لتغيير المجتمعات العربية الإسلامية وضمان تقدمها إن هي اتبعت مبادئ التغيير الداخلي انطلاقا من الآية القرآنية "أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " حيث اعتبرها بمثابة مرتكز أي تقدم حضاري، ورغم كون مالك بن نبي خريج إحدى المعاهد الغربية وعاش لفترة من الزمن في فرنسا إلا انه مع ذلك لم يبد أي تأثر أو تبعية لأفكار الغرب وكان أكثر أصالة ثقافيا وأشد رغبة في المعاصرة علميا، فكانت كل كتاباته تتضمن اعتزاز بمقومات الهوية العربية الإسلامية، كما تمتع برؤية استشرافية اتجاه قضايا الأمة.وضمن هذا الإطار نحاول تقديم إطار نظري يتضمن أهم أفكاره السياسية والاقتصادية والثقافية مع إبراز البعد الاستشرافي في أفكاره. واسقاطها على الراهن العربي .

الكلمات المفتاحية:الحضارة، الأزمة الثقافية، القابلية للاستعمار.

Abstract :

Malik bin Nabi had great merit in presenting a civilized vision to change the Arab Muslim societies and ensure their progress if they followed the principles of internal change from the Quranic verse that "God does not change a people until they change what they themselves" He was a graduate of a Western institute and lived for a period of time in France. However, he did not appear to be influenced or dependent on the ideas of the West. He was more culturally original and more willing in the scientific contemporary. His writings included pride in the Arab Islamic values. This framework is provided And for providing a theoretical framework that includes the most important political, economic and cultural ideas, highlighting the forward-looking dimension in his thoughts. And drop it on the Arab current.

Keywords : Civilization, cultural crisis, and colonialism

مقدمة:

تجتاح المجتمعات العربية اليوم العديد من الأزمات، التي تتطلب الوقوف عندها والتعامل معها بجدية وحذر، وذلك يتطلب منا وعيا فكريا يكون ناتجا عن خلفية تراعي الخصوصية الثقافية والدينية والاجتماعية للأمة العربية، وهذه الأخيرة لا تخلو من قامات علمية قدمت أفكارا وتصورات من أجل إيجاد حلول للحالة المتردية تراوحت بين الفكر العلمي المخطط لإصلاح الدين والدنيا كما عند الماوردي، إلى التنظير العلمي الدقيق العميق لفلسفة التحولات الاجتماعية والسياسية وضبط قوانينها وسننها كما عند ابن خلدون، وصولا إلى طرح أفكار جريئة مثل تلك التي قدمها المفكر الجزائري مالك بن نبي والتي تناولت مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية الاجتماعية والتي تصب جميعها في سياق إحياء الحضارة العربية الإسلامية وتجاوز مختلف الأزمات والمزالق التي مرت على المجتمعات العربية ولازالت إلى اليوم.

أولا ـ لمحة تاريخية عن حياة المفكر مالك بن نبي:

ولد مالك بن نبي بمدينة قسنطينة عام 1905، دخل الكتّاب في المسجد ليحفظ القرآن ويتعلم اللغة العربية، والتحق بعدها بالمدرسة الفرنسية.في عام 1930 سافر بن نبي إلى باريس لمواصلة تعليمه في معهد الدراسات الشرقية، لكن إدارة المعهد لم تقبله بحجة" أنه مسلم جزائري"، وكتب بن نبي عن هذه الواقعة" لم يتم قبولي بالمعهد، لأن الانتساب للمعهد بالنسبة لمسلم جزائري لا يخضع لمقياس علمي، وإنما لمقياس سياسي." ومن هنا يتضح لنا الفكر الناقد والثائر لبن نبي . ولقد ظل يعاني من ممارسات الفرنسيين ضده إلى غاية سفره نحو القاهرة عام1956 ، وكانت الثورة الجزائرية قد اندلعت قبل عامين، وفي القاهرة كانت له نشاطات فكرية من محاضرات ومساجلات خاصة منها مساجلاته مع المفكر الإسلامي سيد قطب حول مفهوم الحضارة والمدنية.(مسقاوي، 2013.ص17). أنتج مجموعة مؤلفات منها" شروط النهضة "و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، وما ميز هذه المرحلة هو ترجمة بعض مؤلفاته للغة العربية، بعدما اكتشف المثقفون المشارقة في مصر ولبنان والعراق أهمية أفكار هذا المفكر الجزائري. وبعد 33 عاما في المهجر، يعود مالك بن نبي إلى وطنه الجزائر بعد الاستقلال1963، حيث تقلد مناصب عديدة منها، مستشار التعليم العالي، مدير جامعة الجزائر، وزير التعليم العالي، ولكنه في عام 1967 استقال وتفرغ للعمل الفكري، وتنظيم الندوات والمحاضرات.وأسس" ملتقى الفكر الإسلامي "الذي كان يعقده أسبوعيا في بيته، ورواده من الشباب . فتبنت الدولة هذا الملتقى الذي أصبح يُعقد سنويا، ويحضره كبار العلماء من الجزائر وخارجها.وقبل وفاته بسنوات صمم بن نبي على تعلم اللغة العربية، ونجح في ذلك، وألف أول كتاب باللغة العربية "الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة"، وظل بن نبي مواظبا على عمله الفكري، إلى أن انتقل إلى رحمة الله عام 1973. (الخالدي، د ت. ص10).

ثانيا –الإسهام الحضاري لمالك بن نبي اتجاه أزمة الفعالية والمنطق العملي في المجتمع العربي والإسلامي:

كل إسهامات مالك بن نبي تنصب على الركود الفكري والعملي الذي أصبحت المجتمعات العربية الإسلامية تعاني منه بعد أن كانت مركز إشعاع حضاري قبل الاستعمار، حيث يرد على مقولة الاستعمار بأنه جاء ليقدم مساعدته للارتقاء بالشعوب المتخلفة بقوله:" كيف نحكم على من يأتي إلى بابك كي يبيع لك حضارة ؟ إن بعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها إلا كثمرة جهد متواصل أو هبة تهبها السماء، كما يوهب الخلد للأرواح الطاهرة ويوضع الخير في قلوب الأبرار ... فالحضارة من بين هذه القيم لا تباع ولا تشترى ولا يمكن لأحد من باعة المخلفات أن يبيع لنا منها مثقالا واحدا، ولا يستطيع زائر أن يدق على بابنا أن يعطينا من محفظته، أو من حقيبته الدبلوماسية درة واحدة منها" (بن نبي، 1991. ص132). وهو هنا يشدد على ضرورة وجود العزم الداخلي من أجل التقدم وفق محددات داخلية وإرادة ذاتية فتكون بذلك الحضارة "هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضر، وفي إرادة هذا الشعب إزاء الحضارة، أي عندما يضع في كل تفصيل من حياته مضمونه الأخلاقي والجمالي والعملي، حتى يكون هذا التفصيل كأنه خطوة نحو التقدم"(بن نبي، 1991.ص136).لا يمكننا التطرق لأزمة الفعالية والمنطق العملي الذي بعاني منه المجتمع العربي المسلم بمعزل عن مفهوم مالك بن نبي للثقافة ولشروط النهضة التي تقوم على ثلاث محددات هي الإنسان والتراب والوقت مع مجمع رئيسي لهذه القوى الثلاث وهو العامل الديني وبهذا تكمل معادلة الإنتاج الحضاري حيث" يمكن القول بأن البرنامج أو النظام التربوي السابق ذكره والذي يتخذه المجتمع دستورا لحياته الثقافية يتألف من عناصر أربعة يراها مالك بن نبي مهمة جدا لجمع شروط الفعالية التي هي النقطة الأساسية التي يمكن من خلالها الوقوف على مكانة الثقافة في المج ونجاح أية سياسة اجتماعية تنشد التجديد الحضاري وهذه العناصر هي كالتالي –التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية وتحديد السلوك الجماعي داخل المج –التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام– المنطق العملي– التوجيه الفني المتلائم مع حاجات ومتطلبات كل مجتمع. (لحرش، جوان 2007.ص26).إن المبادئ الأربعة التي حددها مالك بن نبي في تعريف الثقافة هي التي تحقق مجتمعة شروط الفعالية (التي يوظفها أحيانا كمرادف للثقافة)"فالمبدأ الأخلاقي هو الدافع في النفس الذي يجعل العمل إراديا وهذا العمل يأتي بصورة يحددها ذوق الجمال، وبهذا يتم جزءا من فعاليته ويؤدي للمصلحة الاجتماعية بقدر ما فيه من منطق عملي يحدد سرعة الإنجاز، ولا يتم ذلك إلا عبر الأصول النظرية والوسائل المادية التي يقدمها العلم".(بن نبي، بين الرشاد والتيه، 2013. ص89).

وبالعودة إلى واقع مجتمعنا الجزائري نستنتج أن ما ينقص على وجه الخصوص هو المنطق العملي للأفكار والثقافة التي هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة التي تجعل أفراد المجتمع يتلقونها في تربيتهم ويمارسونها في تعاملاتهم ويلاحظونها على مستوى القيادة العليا للبلاد المسؤولة أولا عن تسطير خطط التنمية الفعالة تربويا واجتماعيا واقتصاديا وكل ذلك تحت رئاسة السياسيين المثقفين لا المتعلمين أكاديميا فقط، لأن السياسي المثقف المخلص لوطنه يحمل وعيا أكبر بمسؤوليته التاريخية الحضارية اتجاه ضرورة الفعل والدافع للفعل علما وعملا.فالفعالية إذن عند مالك بن نبي رحمه الله هي قلب دافع، عقل موجه، ويد نشيطة.

ويشير مالك بن نبي إلى أن العلاقة وثيقة الصلة المتبادلة بين الإيديولوجيات السياسية والثقافية ويرى أن أزمة الفعالية ممتدة من الثقافة إلى السياسة، لأن السياسة تفقد فعاليتها إدا انفصلت عن اتجاهات المجتمع وقيمه الثقافية "إن صناعة السياسة تعني إلى حد كبير تغيير الإطار الثقافي في اتجاه ينمي تنمية متناغمة عبقرية امة، ومن هنا فصناعة السياسة تعني في آخر المطاف صناعة الثقافة".(بن نبي، بين الرشاد والتيه، 2013.ص90).

ومن المهم حسب رأي مالك الحديث عن شيء لا وجود له لان محاولة لخلقه والإسهام في تكوينه هذا ويشير بن نبي أيضا بان العمل وحده هو المصدر الذي يخط من خلاله مصير الأشياء، لأنه لا يتولد أساسا من الخطب وإنما من حركة العناصر الأساسية الدائمة (الإنسان، التراب والوقت) .وكمثال يظهر ذلك جليا في محاولة المسلمين الأوائل اللجوء في البداية بصورة فعلية إلى مباشرة إنجاز أول مسجد لهم بالمدينة شكل أول ساحة عمل كانت منطلقا للحضارة الإسلامية .أنهم بهذه الطريقة استطاعوا أن يتحكموا في مجرى التاريخ ويستنتج من ذلك أنه في المج الذي هو في حالة نشوء يتعين النظر إلى العمل من الجانب التربوي وليس من جانب الربح أو الكسب (لحرش، جوان2007 . ص38).

ثالثا– أزمة الاستقلالية في المجتمعات العربية والسبيل لتكوين حضارة من خلال ثقافة مجتمع:

لا وجود لمجتمع بلا ثقافة ولا وجودة لحضارة بلا ثقافة وبالتالي فالمجتمع المثقف الواعي من شأنه أن يصنع حضارة ويمكن أن نقف على العلاقة المتعدية التي تربط مفاهيم :الحضارة الثقافة المجتمع فيما يلي الحضارة "في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة " ومن جهة أخرى "فإن كل واقع اجتماعي في جذوره هو قيمة ثقافية معينة محققة في واقع إنساني "فالحضارة سيرورة كلية يحققها المجتمع بواسطة أفراده المتشعبون بثقافة يعكسون قيمتها في ذلك الواقع الاجتماعي(عباسي، سبتمبر2007. ص346).

يناضل المثقف من أجل قيم يسعى لترسيخها واقعيا إيمانا منه بضرورة تغيير الواقع نحو الأفضل لذلك نجده يستميت في الدفاع عن توجهاته اتجاه الحلول المقترحة للخروج من أزمة التخلف التي

يعاني منها مجتمعه. غير أن تتبع واقع المجتمعات العربية يكشف لنا عن عجز المثقف العربي عن تنوير المجتمع ولازال بمثابة المنفعل المقيد على الرغم من أن دوره يستلزم أن يكون فاعلا مؤثرا لا منفعلا." (حرب، 2004. ص13)

وفي تناول مالك لأزمة المجتمع وضع سلسلة كاملة من عصارة فكره وتوجهاته في محاولة تشخيص تخلف المجتمع العربي عن ركب الحضارة، فألف مشكلات الحضارة ضمنها كتابا كاملا حول مشكلة الثقافة في توجيه منه إلى الشباب المتطلع إلى العودة بالمجتمع العربي الإسلامي إلى حلبة التاريخ. يعرف مالك بن نبي رحمه الله الثقافة بأنها "مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه". (بن نبي، مشكلة الثقافة، 2013، ص74)

إن هذا التعريف المتعمق للثقافة ينبني عند مالك من المسؤولية التاريخية للفرد اتجاه واقع المجتمع، فالإنسان هو الموجد للتاريخ وليس العكس من خلال إرادته في التغيير ووعيه بقدرته على ذلك بصفته صانعا للتاريخ ومحركا للمجتمع ."فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ... وهذا يعني أن مشكلتنا تكمن في الفعالية، فعالية الإنسان في التاريخ". (بن نبي، تأملات، 2013. ص129)

وفي محاولة منه لوضح حل لمشكلة الأفكار في العالم العربي يطرح مالك بن نبي تساؤلا عن الظروف التي تجعل المجتمع يخلق في الفرد القيمة التي تبعث فيه الفعالية، ونجعله مسيطرا موجها للأحداث التاريخية، وهنا جاء تركيز بن نبي على وعي الأفراد وقلقهم اتجاه مشكلات المجتمع الذي ينتمون إليه.

وبالنظر إلى العقل التحليلي ثاقب النظرة الذي تميز به مالك بن نبي فإننا نجده في كل كتاباته يعيد المشكلة إلى جوهرها بالأساس وهو التربية والمدرسة فبقدر ما تستعيد الأسرة والمدرسة معناها الأصيل في زرع القيم السلوكية والفكرية الفعالة وأحياء الضمير والشعور بالمسؤولية اتجاه الدور الحضاري الملقى على كل أفراد المجتمع مع الاستفادة من تجارب البلدان المتقدمة دون تمييع لخصوصية مجتمعنا الفكرية التاريخية، تستطيع حينها الثقافة والسياسة بعكس قوتها الفكرية على أرض الواقع "فالسياسة حينئذ تكتسب بعدا وطنيا وعالميا بفضل ما تهب لها من تفتح على القيم، التي اكتسبها الفكر الإنساني عبر الآلاف من السنين، فهناك يتجانس عمل الدولة مع عمل الإنسانية بعدما يكون قد تجانس مع عمل الفرد" (بن نبي، بين الرشاد والتيه، 2013. ص90).

ويؤكد بن نبي على أن جملة الأفكار الفعالة التي يتربى عليها المجتمع هي التي تحيي ضميره وتدفعه إلى أن يندمج في حركة التغيير الفعال وتجاوز مشكلاته حيث تنعكس على سلوكه وتحدد تفاعلاته الاجتماعية ولا تقتصر على معرفة الواجب بل تتعدى إلى ممارسته بإخلاص وصدق ثم

تتأتى الحقوق تلقائيا على نفس المستوى من الجدية في القيام بالدور وحينها تتسارع خطى التنمية والعودة إلى مصاف التقدم في جميع المجالات. "فالفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي قررنا أنه مات موتا ماديا وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي، فإنه يموت موتا ثقافيا، فالثقافة إذن إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح ميتا"(بن نبي: مشكلة الثقافة، 2013. ص50)' وفي هذا الصدد فمالك يرى بأن الإنسان يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات هي :فكره، عمله، ماله ومن الممكن قلب هذه الصيغة والقول بأن قضية الإنسان في المج الذي يعاني أزمة حركة ونمو على مستوى مختلف الخطوط التنموية (الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية، السياسية...) منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث: أ–توجيه الثقافة، ب–توجيه العمل، ج–توجيه رأس المال.(لحرش، جوان 2007.ص 18)، كما إن التطبيق الفعلي لجملة ما قدمه مالك بن نبي من مقترحات فكرية عملية من شانه أن .يضمن استقلالية المجتمعات العربية في مسعاها للتقدم الحضاري الذي لا يمكن أن يتم بأي حال من الأحوال في إطار استيراد المنتجات الحضارية الغربية دون امتلاك مفاتيحها.

ويشير بن نبي إلى وجود قطيعة بين عالم الأفكار وعالم الأشياء حيث تفقد الأفكار فعاليتها إن لم تكن لها نتائج ملموسة على أرض الواقع وهنا يتم تكريس التبعية للغرب الذي نبقى نستمد من الأشياء من عالمه والغرب يشبع الأشياء بثقافته مادام هو الطرف الأقوى وهنا يقع المجتمع العربي الإسلامي تحت سطوة الحاجة للغرب والتقليد والتبني لمفاهيمه البعيدة كل البعد عن الخصوصية المحلية سواء عن قصد أو غير قصد وهنا تزداد حدة الصراع بين تيار الانغلاق الأصالة وتيار الانفتاح والمعاصرة وهنا تبدو العلاقة عكسية حيث يؤثر علم الأشياء الغربي على عالم الأفكار العربي وينتج عنه صراع وعدم توازن فكري وأحيانا اضطراب أخلاقي نتيجة الاغتراب الثقافي الذي يقوض أواصر المجتمع العربي.

وابن نبي يتفرد في بيان ما هو أخطر وأشد في عملية إضعاف الدول العربية، ألا وهي القابلية للاستعمار، لأنها عامل داخلي في نفوسنا، حيث نتقبل كل ما يطلقه المستعمر علينا، فما يطلقه من مصطلحات ضدنا نتقبلها ونرددها على أساس أنها من المسلمات الصحيحة، حيث نقيس أنفسنا بمقياسه، وذلك نتيجة الضعف في شخصيتنا الفكرية والنفسية، فنحن نخدمه باستغلاله لما في أنفسنا من استعداد لخدمته، فنفوسنا معلولة من باطنها، بها معوق داخلي يمسكها عن التقدم، ونحط من قيمة أنفسنا بأنفسنا، فنحن مسخرون لهم بحيث أصبحنا أبواقا يتحدث من خلالها، وأقلاما يكتبها، ومسخرين له بعلمه وجهلنا).(العقبي، 2005. ص 284)

الآن ونحن في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين وتخلص الدول العربية من الاستعمار المباشر أصبح الخطر الغربي أكثر سطوة من خلال ما نشهده في واقعنا من صراعات وتفرقة أجج

الغرب نارها بطرق غير مباشرة هذه المرة وبطرق أكثر خداعا حيث أصبح العدو داخلي أحيانا تعكسه الفئة القابلة للاستعمار الفكري التي لم تعد تملك من الوعي الثقافي والحصانة الفكرية ما يمنعها من التبعية للغرب وتبني أيديولوجياته ومنطلقاته رغم اختلاف السياقات المحيطة بتكوينه وتطبيقه، أن الغرب الذي استعان بالمستشرقين سابقا لدراسة أفكار الشعوب من اجل السطوة عليها بأسلوب محنك أصبح اليوم أكثر حنكة في ظل مفاهيم العولمة والحداثة وتحكمه في وسائل الإعلام والاتصال التي أصبحت وسيلة لإلهاء الشعوب العربية عن مشاريع النهضة والتنمية الداخلية لتوجيهها نحو تبني رؤى الغرب باعتباره مالك المعلومة والحرب الآن حرب باردة ظاهريا ملتهبة واقعيا قائمة على السيطرة بالمال ونشر الوعي الزائف حتى لدى فئة المتعلمين والتشكيك في الرموز الحضارية وتشويه الدين.

رابعا – الفكر السياسي لمالك بن نبي ومقاربته للواقع العربي في ظل أزماته المعاصرة:

نحاول من خلال هذا العنصر التطرق إلى فكرة القابلية للاستعمار والتي تعتبر أهم الأفكار السياسية على الإطلاق لدى المفكر مالك بن نبي، ربما يتساءل البعض لماذا التركيز على هذه الفكرة بالذات ؟ إن الملاحظ للوضع الذي تمر به المنطقة العربية من أقصي الخليج إلى أقصى المحيط يجعلنا نتوقف كثيرا عند فكرة القابلية للاستعمار وقبل الخوض في إسقاطها على الواقع العربي لا ضير في أن نقف قليلا عندها. فحسب مالك بن نبي يرى بأن ظاهرة الاستعمار نتيجة منطقية لظاهرة القابلية للاستعمار، ليس بسبب أصول عنصرية كما قد يفهم البعض خطأ، ولكن من حيث توفر شروط نفسية – اجتماعية– تسبب في الوسط الاجتماعي الثقافي عوامل الضعف والعجز داخل الذات الفردية والجماعية بحيث يضعف جهاز مقاومته وتعجز قواه عن رد العدوان الخارجي، بما يسلمه لقمة سائغة للاستعمار، وبالتالي حسب المنطق المالكي (إن صح التعبير) فإن الشعور بالوهن والهزيمة يكون نابعا من أنفسنا أو من داخلنا، لهذا فكثيرا ما نجده يستشهد بالآية الكريمة " **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** " (سورة الرعد، الآية 11) وهو يرى أن ما بأنفسنا من هوان وضعف المستعمر هو المتسبب فيها فمثلا أثناء الحقبة الاستعمارية للجزائر عمل المستعمر على تشويه النفسية الجزائرية من خلال تسميتهم بالأهالي أي أفراد بدون قيمة وليسوا مواطنين لهم كرامتهم وحقوقهم، وبالتالي هذا الوضع خلق في أنفسنا نوعا من الرضوخ من خلال قيامنا بقياس أنفسنا وفق مقياس المستعمر لنا، وبالتالي في هذه الحالة يفقد المجتمع توازنه ويبحث عن نماذج يبني عليها نهضته، لكن هذه النماذج في الأخير ما هي إلا الأفكار الغربية ونمط الحياة الغربية والثقافة الغربية التي يتصورها الفرد الجزائري والعربي بمثابة القدوة المثالية التي تمكنه من التطور، وهنا تبدأ مرحلة التقليد وهذا نوع أخر من الاستعمار الغير المباشر والذي يعمل في نفس الوقت على تعزيز الإحساس بالنقص اتجاه الأخر مما يجعله في الأخير لقمة سائغة من جديد ومن السهل السيطرة عليه وإعادة

استعماره لكن هذه المرة بقبول من المستعمر نفسه وبأشكال وأنواع متعددة (بن نبي، بين الرشاد والتيه، 2013، ص161)

ولعل الواقع العربي اليوم يدل بما لا يدع مجال للشك عن مدى صدق التحليلات التي جاء بها مالك بن نبي من خلال الهزائم المتتالية التي لحقت بالعالم العربي وعلى مختلف الأصعدة السياسية، الثقافية، الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية ...الخ ليأتي في الأخير ما يعرف بالربيع العربي ليثبت مدى الضعف العربي ومدى قابليته للاستعمار، وإلا كيف يقبل العرب بتدخل الناتو في ليبيا والسعي لجلبه إلى سوريا، دون أن ننسى سقوط العراق الذي كانت الطائرات الغربية تقلع من مطارات عربية لضرب العراق، ولعل الجرح الفلسطيني وما آلت إليه القضية الفلسطينية من تنازلات تجسدت في عمليات التطبيع التي قامت بها جل البلدان العربية مع المحتل الإسرائيلي، أما إذا ما تطرقنا إلى نوع آخر من الاستعمار الغير المباشر فيتجلى بوضوح في الجانب الثقافي والفكري، حيث أصبحت النظريات والأفكار الغربية هي المحرك والمفسر للأوضاع العربية، دون أن ننسى التأثر الكبير بنمط الحياة الغربية بداية من الملبس والمأكل وصولا إلى طريقة التفكير والتخلي عن الدين تحت فكرة العلمانية والعولمة وحوار الحضارات والتي ما هي في الحقيقة إلا آليات جديدة للاستعمار جديد . لكن هذا الاستعمار ما كان ليتجرأ علينا مرة أخرى لو كنا أقوياء وهنا يبرز صدق التحليل الذي جاء به مالك بن نبي .

وعليه يمكن القول أن أفكاره فيما يتعلق بالوضع السياسي للمجتمعات العربية يمكن أن تعد بمثابة رؤية استشرافية كان بإمكاننا الاستفادة منها وتفادي جل الأزمات التي نعاني منها اليوم .

خامسا – التصورات الاقتصادية لـ بن نبي وميكانيزماتها كحلول للراهن العربي المتأزم اقتصاديا:

يمكن إدراج تحليلات مالك بن للوضع الاقتصاد يضمن دائرة الاقتصاد الإسلامي لأنه يرجع جميع مراحل بحوثه إلى الشريعة الإسلامية ويقيد تقريراته واستنتاجاته بالضوابط الشرعية إما ضمنا أو تصريحا : " وإنني مع الحرص ككل مسلم على مراعاة شروط الفقه الإسلامي لا أرى لتدخل مذهبي في قضية ذات طابع تقني بحت " (بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، د ت، ص ص 84، 85) وعلى الرغم من الموجة التغريبية التي كانت سائدة إبان الفترة التي عاش فيها مالك بن نبي تجده يحافظ على التفكير الأخلاقي الإنساني، وقد أسقط ذلك على المجال الاقتصادي أين يعرض بوضوح ملامح الاقتصاد الأخلاقي أو الاقتصاد الديني أو القيمي كما يسميه الأستاذ عبد الحميد الغزالي : "والمجتمع الإسلامي أجدر من يحقق له وللإنسانية التجربة التي تعيد إلى عالم الاقتصاد أخلاقياته.(مصيطفى، 29 أوت – 05 سبتمبر 1989)

كما لا يكتفي مالك بن نبي بالنظرة الساكنة بل نجد الحركية ذاتها تطبع تحليله لجوهر الأزمة

الاقتصادية للعالم الإسلامي، هذه الحركية التي يصطلح عليها بـ(المقاربة التاريخية) أين نجد الدعوة واضحة إلى إعادة قراءة التاريخ لاكتشاف أسباب الانحطاط وحجم هذا الانحطاط .

وعليه فإن موضوع تحليلاته هو عملية إعادة بناء تعمير العالم الإسلامي ." لا يمكن أن نتصور نجاح إنجازها آخذا في الاعتبار قيمة الإنسان على شرط أن تكون إرادته شرارة مقتبسة من إرادة حضارية"

وبالتالي نجد المقاربة التكاملية بين أقطار العالم الإسلامي تطبع التفكير الاقتصادي عند مالك بن نبي فالأمة الإسلامية بتعدد أنماطها الاقتصادية تملك في إطار التكامل الاقتصادي القادر على إحداث علاقات اقتصادية دولية جديدة وأشكال تبادل أخرى " (بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، د س، ص 107.)

5-1- شروط فعالية الحركة الاقتصادية عند مالك بن نبي: يمكننا الانطلاق من الحديث عن آليات تحقيق التوازن المذكور .وهنا كتقسيم مرحلي يعني المجال الزمني لتحديد الخلل وممارسة العلاج. وهنا كتقسيم ثاني يخص طبيعة الأدوات المستعملة في العلاج ومجالات ممارستها.

أولا التقسيم المرحلي : تشكل مرحلة الانطلاق أو الإقلاع جوهر التحليل ويبقى علينا تشخيص وضعية ما قبل الانطلاق ورسم شروط ضمان استمرارية النهوض الاقتصادي بعد نقطة الإقلاع.

إن المرحلة الأولى التي يجب أن نوفر لها قدرا مناسبا من تفكيرنا تستدعي ترتيبا في الأول يتحقق من خلال معالجة عملية دقيقة لمرحلة (الانحطاط) أو ما قبل الإقلاع.

مرحلة الانحطاط تتسم بتوفر جملة من الاختلالات(سلوكية، سياسية، فنية، إستراتيجية) نعبر عنها بـ(المظالم) التي أدت إلى فقد أنسنة التقدم على الصعيد الاقتصادي ولو كان المجتمع قد حقق توازنه السياسي في صورة "الاستقلال الوطني" فإن من خصائص المظالم الاقتصادية أنها قد تستمر وربما تتفاقم مع تحقيق الاستقلال السياسي كما هو الشأن بالنسبة للعديد من الدول الإسلامية . وفي مرحلة الاختلالات الاقتصادية يكون الشعور والوعي الاجتماعي بها ثم اتساع دائرة هذا الشعور على المستوى الشعبي عاملا مساعدا للاقتراب من مرحلة الإقلاع لأن ذلك يهيئ جانبا من شروط "الثورة الاقتصادية" بإيقاظ الإحساس بفساد نظريات الغرب المطبقة في مجال التنمية والتي جربت في بلاد المسلمين.

أما الإقلاع فهو الصورة المنطقية الطبيعية لنضح أدوات وآليات الحركية الاقتصادية القائمة على المستوى مترابط هي المستوليات المختلة في المرحلة السابقة: المستوى العقائدي الإيديولوجي،

-المستوى النفسي، المستوى الاجتماعي، المستوى الفكري والتصوري..الخ (صلاوي، 15 أوت 2007، ص8).

5-2-عناصر الحركية الكامنة وطرق شحذها للنهوض بالاقتصاد العربي .

أ- المستوى العقائدي: لا يمكننا أن نتصور حركة دون دافع عقائدي في النظام الإسلامي أو إيديولوجي في النظم الوضعية لاسيما في مجال حركة الإعمار أو التنمية التي تستدعي طاقة دافعة قوية تناسب حجم العجز في التنمية حيث لابد من عقيدة متينة ترعى مكاسب الإعمار، من أجل شروط الإقلاع ينبغي أن تكون هيمنة الجانب العقائدي واضحة في المخطط أو البرنامج أو السياسي بالنسبة للمجتمع المسلم ويبدو أنها قاعدة عامة أن يهيمن البعد الأيديولوجي على الخطط الاقتصادية للمجتمعات كما هو الشأن بالنسبة للمجتمع(السوفيتي)في» مرحلة التشييد «أو المجتمع» الصيني « الذي يعتقد أن جده الأكبر "يوكنغ"ب إمكانه هز الجبال "ويقدم مالك بن نبي مثالا من الحضارة الإسلامية أثناء بناء مسجد رسول الله في المدينة حيث كان الصحابة يحملون الحجرة حجرة وكان عمار بن ياسر يحمل على كتفيه حجرتين مرة واحدة فرآه صلى الله عليه وسلم فقال له لكل هؤلاء نصيب في الجنة وأنت لك نصيبان .«إن الذي كان يدفع بالصحابي الجليل عمار بن ياسر إلى تحقيق هذا الإمكان في الحمل هو الحافز العقائدي الذي يعبر عنه مالك بن نبي بالوعد الأعلى . (إن هذا الوعد هو أعلى وعد يمكن أن يتصوره البشر لارتباطه بالحياة الأخروية فضلا عن الحياة الدنيوية مما يجعل من العقيدة الإسلامية أقوى حافز على الإطلاق بين مجموعة الحوافز الإيديولوجية الأخرى(البحيري، 2006، ص37)

لكن بإسقاط هدا الدافع اليوم على الوضع العربي الراهن، بمكن القفول أن المجتمعات العربية قد أغفلت بشكل كبير هدا الدافع بل بالعكس فأن أنظمتها الاقتصادية قائمة على نظريات وتصورات غربية فمثلا التعامل الربوي في البنوك بالرغم من أنه محرم شرعا إلا أن البنوك العربية تتعامل به وفقا للمنطق الغربي .

ب- المستوى النفسي: لاشك أن الخلل الذي حدث على صعيد علاقة المسلم بدينه قد أثر سلبا على نوعية النفسية التي تتطلبها عملية التقدم الاقتصادي .ذلك أن العملية التنموية تتطلب شروطا نفسية خاصة فضلا عن الشروط المادية والفنية والمعرفية، ولأجل ذلك يستدعي الاقتراب المنهجي من فك رموز المعضلة الاقتصادية إعادة الاعتبار للعناصر النفسية للإنسان المسلم شعبا وقيادة عن طريق إعادة الثقة بالنفس وإعادة صياغة التكوين الشخصي للفرد بدء ا من العادات ونسق النشاط والمواقف تجاه المشكلات الاقتصادية(مسقاوي، 2013.ص511) وفي هذا السياق يمكن الحديث عن التبعية العربية للغرب في كل شيء حتى في نمط معيشته وهدا حسب مالك بن نبي يعود إلى عقدة النقص التي يعاني منها الفرد العربي اتجاه كل ما هو غربي، وللأسف هذا ما نعيشه اليوم في مختلف المجتمعات العربية التي تفضل اقتناء الساعة السويسرية والحداء الايطالي والعلاج في المستشفيات الأمريكية ...ألخ ولعل العامل النفسي المشتت والناتج عن تدهور العلاقة بين المسلم

ودينه وثقافته وفكره يعد أحد الأسباب وراء ذلك.

ج – المستوى الاجتماعي: على المستوى الاجتماعي أيضا تقتضي الحركة إشراك كافة فئات المجتمع في ممارسة الخطة الاقتصادية من حيث الصياغة والتنفيذ أو ما عبر عنه مالك بن نبي بـ(النشر الاجتماعي للخطة) مما يسهل عملية تكييف يعني باختصار إعادة الوظيفة الاستهلاكية وكذا الوظيفة الاستثمارية للمجتمع المسلم إلى مجراها الطبيعي بسلم الأوليات "الضرورة ثم الحاجة ثم التحسين"،

(بن نبي، بين الرشاد والتيه، 2013. ص169) إن الشق الاجتماعي في عملية الحركة الاقتصادية مغيب تماما في المجتمعات العربية من حيث إدراج المجتمع ضمن مخططات التنمية والتنفيذ، لان الصورة النمطية عن الجانب الاجتماعي في المجتمعات العربية لا تتعدى فكرة التضامن مع الفقراء والمحتاجين وتقديم خدمات اجتماعية للموظفين والعمال، أما غير ذلك فإن الحكومات العربية لا تشرك بأي شكل من الأشكال المجتمع في خططها الاقتصادية والتي في الغالب تعتمد على مستشارين غربيين ومفكرين أجانب .

د–المستوى التصوري والفكري: في هذا المستوى نشعر بالحاجة إلى وعي اقتصادي لتعمير البلاد الإسلامية وعيب القوانين والمفاهيم وآليات التغيير الاقتصادي في إطار المذهبية الإسلامية من أجل إعادة صياغة النماذج الإنتاجية والاستهلاكية والتبادلية والتوزيعية وتحسن المواقف تجاه ركائز الاقتصاد وعلى رأسها المال الذي يعتبره الإسلام أحد كليات الشريعة ومن مقاصدها. ونلاحظ تاريخيا أن غياب هذا النوع من الوعي هو الذي مهد للاستعمار الاقتصادي الجديد على الصعيد الإنتاجي أين فرضت على الأمة أنماطا ووظائف إنتاجية غربية» إنتاج العنب الموجه لصناعة الخمور في بعض البلاد الإسلامية «أو إنتاج سلع كمالية موجهة للسوق الرأسمالي ومن أجل تلبية نمط استهلاك رأسمالي، وعلى الصعيد التبادلي أين فرضت على الأمة أنماط تبادل» مجحفة مادة أولية مقابل العملة الصعبة «وأنماط تثمين غير عادلة تجعل سعر المادة الأولية أقل بكثير من سعر المادة المصنعة. (بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، د ت، ص106). وعلى الصعيد الاستثماري أين فرض علينا التصور الرأسمالي لماهية رأس المال وحصر هذا الأخير في المجال النقدي ليتحول اقتصاد نقدي بحت ولتتعطل بذلك الصور الممكنة الأخرى للاستثمار وعلى رأسها الاستثمار الاجتماعي وهذه الحالة الأخيرة هي التي صنعت العلاقة القائمة مع البنوك والمؤسسات النقدية الدولية وما تمخض عن هذه العلاقة من إختلالات واضحة على مستوى الموازين المالية لدولنا الإسلامية. وإن إعادة بناء الوعي التنموي يعني:

* إعادة الاعتبار للاستثمار الاجتماعي مقابل الاستثمار المالي أو المادي.
* إعادة الاعتبار لوظيفة الادخار مقابل وظيفة الاستهلاك أي الوعي بأثر السلوك الإنفاقي

للدولة .ذلك الوعي الذي من شأنه إحداث حركية دافعة في مجال الإنفاق الاستثماري إذا ما توفرت الشروط المؤسسية (المصارف لتوجيه الاستثمار بالأدوات المشروعة عقود المصاريف والشركات الإسلامية وفي الأبواب المشروعة إنتاج الطيبات مع السلع والخدمات)

* الوعي بعدم عدالة أنماط التبادل القائمة مما يستدعي أنماطا جديدة أو على الأقل التفكير في أنماط جديدة نابعة عن التصور السليم للقيمة مادامت المذاهب الاقتصادية هي التي تصنع أنماط تبادلها وفي مرحلة الإقلاع حيث يغلب على العلاقات الدولية طابع التبادل الرأسمالي ويكون من الأنجح تبني علاقات تجارية دولية جديدة كتلك التي تربط بين البلدان ذات الأنماط الإنتاجية المتماثلة أو المتقاربة وهو جوهر فكرة الإفريقية–آسيوية تلك الفكرة التي تستبد لمعادلة» مادة أولية مقابل مادة أولية «بمعادلة» مادة أولية مقابل عملة صعبة) (صلاوي، 15 اوت2007، ص09) من خلال هده المستويات التي قدمها مالك بن نبي، يمكن القول أنه تمكن من تشخيص الداء الذي ينخر في الاقتصاد العربي ووضع العلاج المناسب، ولعل جوهر كلامه يتمثل في ضرورة بناء اقتصاد يخضع للخصوصية الدينية والثقافية للمجتمعات العربية، وفي نفس الوقت يراعي الاحتياجات والإمكانات التي تتوفر عليها هده الدول مع ضرورة استثمارها بشكل عادل، يلغي السيطرة الغربية عليها .وعليه يمكن القول أن التصورات التي يقدمها مالك بن نبي حول النهوض بالقطاع الاقتصادي يمكن أن تكون حلا للعديد من المشاكل فبالرغم من مرور أكثر من 40 سنة على أفكاره إلا أنه قدم قراءات استشرافية يمكن الاعتماد عليها والأخذ بها من أجل تفعيل البناء الاقتصادي العربي.والاعتماد على النماذج الناجحة والمتقاربة معنا في الخصوصية الدينية والثقافية مثل ماليزيا إضافة إلى فكرة الوحدة الإفريقية الأسيوية، فالوحدة هي الخيار الأنسب من أجل اقتصاد عربي قوي، وهذا ما قامت به أوروبا من خلال الاتحاد الأوربي.

خاتمة

من مجمل الأفكار التي قدمت في هذا المقال والتي تناولت تصورات مالك بن نبي حول الأوضاع العربية الثقافية، الاجتماعية، السياسية والاقتصادية، يمكننا القول أن الرجل قد عايش فترة زمنية صعبة في حياة الأمة العربية، مكنته من تحليل ما هو كائن في الوضع العربي، وما سيكون عليه مستقبلا، في قراءة استشرافية حددت ملامح المرحلة المقبلة من تاريخ أمتنا، والتي هي بالفعل ما نعيشه اليوم في ظل انسلاخ ثقافي وديني وحضاري، والأسوأ على الإطلاق الحروب والنزاعات التي تجسد فكرة القابلية للاستعمار، لهذا فإن الوقت قد حان من أجل إعادة قراءة أفكار هذا الرجل(الذي يعد بحق مدرسة فكرية) قراءة معمقة، وتجاوز التنظير إلى التطبيق الفعلي لهذه الأفكار على أرض الواقع .

قائمة المراجع:

- البحيري، قادة، (2006). محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، ط1، الجزائر، دار العرب للنشر والتوزيع .
- الخالدي، عبد العزيز، (د ت). مقدمة كتاب شروط النهضة، القاهرة، دار الجهاد.
- العقبي، حسن موسى محمد، (2005). مالك بن نبي وموقفه من القضايا الفكرية المعاصرة ماجستير كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية. غزة .
- بن نبي، مالك، (د ت).المسلم في عالم الاقتصاد.
- بن نبي، مالك، (1991). في مهب المعركة، إرهاصات الثورة، ط1، دمشق، دار الفكر.
- بن نبي، مالك، (2013). بين الرشاد والتيه، ط1، الجزائر، دار الوعي.
- بن نبي، مالك، (2013). تأملات، ط1، الجزائر، دار الوعي.
- بن نبي، مالك، (2013). مشكلة الثقافة، ط1، الجزائر، دار الوعي.
- حرب، علي، (2004). أوهام النخبة أو نقد المثقف، ط 3، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- صلاوي، عبد الباقي، (2007، 15 اوت). بن نبي والنظرية الاقتصادية . جريدة الشرق.
- عباسي، نعمان، (2007 سبتمبر).منظور مالك بن نبي لظاهرة الفقر–بين الفعل السياسي والفضاء – الحضاري–مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، عدد01، منشورات جامعة 20 أوت 1955سكيكدة.
- لحرش موسى، (2007 جوان). مكانة الإنسان في عملية التجديد الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية العددين الثاني والثالث.
- لمير، طيبات، (جوان 2011).التنظير الحضاري عند مالك بن نبي بين التأثر والإبداع – دراسة سوسيوحضارية تمحيصية–المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية، العدد الخامس.
- مسقاوي، عمر كامل، (2013). في صحبة مالك بن نبي، مسار نحو البناء الجديد، الجزء الأول، دمشق، سوريا، دار الفكر.
- مصيطفى، بشير، (29 أوت – 05 سبتمبر1989).المسألة الاقتصادية في فكر مالك بن نبي، مداخلة الملتقى الثالث والعشرين للفكر الاسلامي، تبسة.